حرر على عجل

•

كان الكتاب المقلدون حتى اليوم الذي حبوت فيه الى القلم ثم نهضت منه على ساقيّ طالعاً أتمنى لنفسي حظاً من أدب ونصيباً من بلاغة ، حتى ذلك الحين كان اولئك الكتاب من فحول (الفترة) يختمون ما يكتبون من سجعهم البارد بمثل العنوان لهذه المقدمة الذي جعلته عوضاً عن (التقديم) وما بمعنى هذه الكلمة التي افتتن المحدثون من اصحابنا بالتعبير عنها .

وكان الشعراء من اخوانهم المعدودين من طبقتهم والمطبوعين على ذلك الغرار من (الادب التقليدي) يحذون حذوهم هذا فيختمون ، قصائدهم ببيت لا تخلو منه قصيدة ، فهو مفروض في ختامها فرض (الفاتحة) في مطلع الصلاة — كما يقول الفقهاء — ، وكان هذا البيت ،الذي لم يكن يُملّ ، يتضمن معنى (حرر على

عجل) ولكن بصيغة شعرية تتشرب من القاعدة الادبية القديمة (اكذب الشعر أعذبه)

وأظن انك مستطيع الآن ان تسبقني الى التصريح بفساد هذا (البيت) الذي لم يكن يتجاوز ادعاء الشاعر بانه نظم قصيدته (بنت ساعتها) فان تواضع فقصيدته (بنت ليلتها) ...!

*

وقد فتحت عيني – يوم فتحتها – على هذا التقليد فرأيت ان هؤلاء واولئك يقصدون من النص على (العجلة) الى احد امرين : إما الاعتذار عما في (منشئاتهم) من ضعف النسج ، أو ركة الاسلوب ، او تواضع الصنعة ، وإما اظهار البراعة والتفوق ، والتبجح بالمقدرة العظيمة التي جمعت بين السرعة والجودة ، وربما قصد بعضهم الى الجمع بين الامرين : الاعتذار عما يظهر بعدئذ في آثاره من عيب لم يفطن هو اليه ، والاعتداد بهذه العارضة القوية المتدفقة التي تملأ الصفحة ... بارك الله !... بسبيكة في ساعة أو في ليلة ...؟!

*

وأنا الان بين يدي كتاب بل بين يدي حلقات من الكتب كلها حررت على عجل. ترى أيخطر ببالي ان احيي تلك السنة (الادبية) الميتة فأتأثر بعدواها بعد ان تأثرت بها وهي حية قبل عشرين سنة ونيف ، وكنت لما ازل ناشئاً بالقياس الى الاعمار الادبية ...؟

الواقع اني لم افكر قط في ان اعتذر عما يظهر من عيوب فيما تقرأونه في هذا الكتاب أو في هذه الحلقات من الكتب لاني لا

ارى العبرة في السرعة ولا بالابطاء ، فكلاهما سيان في نظر الناقد، وانما العبرة بالجودة والرداءة في الانتاج. أما مدة العمل فلا يعتبرها (النقد) عنصراً جوهرياً وهو يوازن بين هذه وتلك من الفكر والاساليب والصيغ . وما يضره ان تتأنى وتتروى وتحك وتعدّل. كما لا ينفعه ان تسف وتتهلهل ، وترك وتسفل . وانما هو منك حكمَ يقضي بما يدينك به مستنداً الى الوقائق المحسوسة وان كان للظروف النفسية والزمنية بعض الشأن في الحكم على قيم الملكات لا الاثار وذلك لا ينفع النص باكثر من الاستئناس .

كما اني لم افكر بان ازهو واعتد بما اجتمع لسويعاتي في مساء كل يوم من السرعة والجودة لاني لا اعتبر ذلك الا اثراً طبيعياً من آثار موهبة تؤدي عملها . وما احببت لحظة من عمري ان ادعو الناس الى ان يكرهوا الموهبة التي احببتها واغنيتها . واني لاعلم ان دعوة الناس الى اكبارها وحبها ليست الا دعوة الى كراهيتها بحكم الغريزة التي طبع عليها الناس في هذا الباب لاتصالها بالانانية بمعنى من المعاني . لذلك لم احاول مرة ان اشغل الناس بنفسي ، وحاولت ان اخفف عنهم ما استطعت ، مؤمناً ان (الغيرية) — وهي قلما تتفق للاديب — عنصر خلقي لا بدّ منه للانسان قبل ان يكون اديباً . هذا مع علمي بان الاخذ باذقان الناس ليلتفتوا الى صنعي مكرهين ليس بنافعي اذا لم يلتفتوا من تلقاء انفسهم مختارين.

*

لهذا وذلك جميعاً لم اقصد الى الاعتذار عن هنة ادبية حين تظهر للناقد فيما سيقرأني به من الادب السياسي بخاصة، ولم اقصد الى

الاعتداد بالسرعة كذلك وانما انا في سبيل تسجيل حقيقة واقعة سواء أكانت لي أم كانت علي وسيان عندي بعدئذ أحفل الناقد بما لديه من هذا الجهد أم استخف به ، واعني بذلك انني لم اجهد وانا واضع نصب عيني ما يقال ، وانما كنت اشعر بحاجة لا يسدها الا هذا الجهد ، وبعد أن وضعت هذا العبء فسأكون منه على حياد حين يختلف فيه الناقدون وان كنت أعلم منه ما لا يعلمون .

*

والحقيقة التي اريد تسجيلها هي ان هذا الكتاب أو هذه الحلقات من الكتب ولدت على التتابع في ساعتين من كل يوم ، ولا اريد أن ادعوك الى ان تزهد بها ولا الى ان تكبرها ولكن اريد ان اقول لك اني أذبت فيها واعتصرتها من اعصابي وتفكيري وفهمي للامور التي توسطتها واقتحمت صميمها خلال هذه السنوات الاربع التي عملت فيها بالصحافة ، فخضت بها معارك عدة لم يختلف لي في احداهن رأي لاني لم اخض واحدة منهن دون عقيدة ، كانت هي وحدها مصدر اتجاهاتي وتوجيهاتي جميعاً .

لقد كنت — وما أزال — استوي وراء المكتب بين الخامسة والسابعة من مساء كل يوم لا لأخط هذه السلاسل من الافتتاحيات فقط بل لانشيء (الساعة) التي أغدو بها على قرائي كل صباح وفيها اكثر من افتتاحية مما يقرأه الناس ويلذونه فكراً وخبراً .

وهذا وحده ليس بالامر اليسير على (فرد) قل ناصره ، فكيف اذا جمعت اليه ما يتبع التحرير من مشاكل السياسة التي لا يستطيع تجنبها الكاتب الحر ، ومشاكل الاقتصاد التي تتعب اصحاب الضمائر

والمبادىء ، ومشاكل الطباعة وما تزال المطبعة في بغداد دون الفطام في عمرها الحضاري، ومشاكل الخصومات التي لم يؤذ فيها كاتب بمثل ما اوذيت ، وما شئت من مشاكل وعقد كنت لا استعين على حلها بغير (الوحدة) ان كانت الوحدة مما يستعان به على حل المشكلات ...!

وما اريد ان اشكو ولكني اريد ان استعرض لاقول ان هذا مما نفعني في الاستفادة من هاتين الساعتين المسائيتين استوي فيهما وراء المكتب صادراً عن حياة متوهجة واقدة تمدني من حرارتها وتكشفها بالمعرفة الطالعة بين ثنايا الحوادث، والالام،ومعاشرة بني آدم (عليه افضل الصلاة والسلام ...!؟) فيزيد ذلك في قيمة ما اعتصرته من إلماماتي بالحياة وبما قرأت جميعاً، ويعينني تأثري واحساسي بذلك كله على الافادة من هاتين الساعتين المسائيتين ، ما در به القلم فيما سأقدمه اليك على دعاء (المطبعة) واحاديث الزائرين .

واكبر ما شكرت لذلك كله من يد، صوغه قلمي على مثالين من (الانسانية) و (الواقعية) ارجو ان يكون لهما اثر بعيد وعمر مديد.

*

وقد بدا لي وانا اقود هذه الدفة الصعبة وأساهم بحظي من الخدمة العامة ان اخرج من جهادي بجهد دائم النفع فاني وجدت العمل اليومي عملا تأخذه الريح فلا يستطيع عبقريه النادر ان يعيش اكثر من اسبوع ، وليست العبرة حياته بالذات ، وانما العبرة عندي فيه حسن أثره ، ومقدار جدواه .

لذلك رأيت ان اعنى قدر الامكان بتسجيل هذه الفترة التي

نجتازها عناية تصدر عن الحوادث وتتجاوزها الى مراحل التطور في نشوء الوعي النامي في ديوان يكاد يكون فريداً في هذه اللحظة.

فانت حين تمر بهذه السلسلة تستطيع ان تلم بما تشاء من حاجتك الى معرفة هذا الطور من اطوار العراق في سياسته وادبه واخلاقه وتفكيره واكثر اجوائه التي تقلّب فيها خلال السنوات الاربع التي رافقتها (الساعة).

ولن تحس وانت تستوعب المعرفة التي احدثك عنها بثقل الدرس لانك ستأخذ ما تريد دون مباشرة ولا فرض، وما انت ازاء وقائع فقط ولا تعليق فقط ولا نظريات فقط، وانما انت ازاء مزيج من هذا كله تداخل بعضه ببعض فحبب بعضه الاقبال على بعض.

وهذه ميزة كتبنا هذه التي اسميناها «في قطار الزمن»، ملمحين بذلك الى ما قصدنا اليه من تاريخ التطور استناداً الى الاحداث.

وستمر في هذه الكتب بصور ومقالات كان للكثير منها صدى عظيم في الأوساط العراقية ولعل بعضها مما حفظته اضابير المهتمين بحفظ الكلمات التاريخية من اصحاب الدواوين، ومن المراقبين للاطوار السياسية، وسأحرص على تدوين ظرفها لأجلو قدر المستطاع روحها التي تعينك على فهم عصرها وما يحيط بها ليّطرد الغرض الذي من اجله احببت السفر «بهذا القطار»...!

*

واني مخرج من هذه المجموعة الحلقة الاخيرة مما انتهيت اليه،

وكان الانسب ان اراعي الترتيب في اخراج هـــذه الحلقات ، ولكن الحلقة الاخيرة استأثرت بالتقدم لأنهـا سجل الحركة من حركات الانتقال الحاسمة في تاريخ العراق الحديث، ولانها صـدى للوثبة الخالدة يمتد الى ما شاء الله بعد هذا التاريخ .

وهذه الحلقة التي تسبق اخواتهـا الى الظهور هي (سحابـــة بورتسموث) التى كنت اول من تفاءل بانها ستنقشع .

وفي هذا الكتاب تاريخ قصير للوثبة العراقية في غرة عام ١٩٤٨ ولكنه تاريخ عريض يدرس المعاهدة الجائرة والانتفاضة الثـائرة وما بينهما من عوامل وظروف هيأت كلاً منهما على نحو ما جـــاء بروح وطني خاضع للمنطق والاعتدال .

نيسان ١٩٤٨ صدر الدين شرف الدين